مظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وغاوو وجنّي في عهد الأساكي

د. محمد حمد كنان ميغا(*)

مقدمة:

كانت مملكة سنغاي أهم الممالك الإسلاميّة التي عرفت في غرب أفريقيا، وخاصة عند ما تولى الأساكي مقاليد السلطة، حيث تحولت بعض المدن إلى مراكز علمية، وقام العلماء بدور كبير في نشر الثقافة الإسلامية العربية فيها، عبر المساجد والمدارس والمجالس العلمية السلطانية، وتميزت هذه المراكز بمناهجها التعليمية وموادها الدراسية والإجازات والدرجات التي تمنحها لطلاب العلم، وقد انتشرت لذلك الكتب والمكتبات، وكان لها كبير الأثر في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي.

تمهيد: نبذة عن المراكز العلمية في مملكة سنغاي في عهد الأساكي:

أولاً: تنبكتو: وكانت من أهم مدن السودان الغربي، أُسست على يد الطوارق الملثمين في أواخر القرن الخامس الهجري على نهر النيجر، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنها أُسست عام ١١٠٠م(١)، وكانت مدينة إسلامية منذ نشأتها، قال السعدي: (ما دنستها عبادة الأوثان، وما سُجد على أديمها قط لغير الرحمن)(٢).

قامت مدينة تنبكتو بدور ثقافي بارز في السودان الغربي في عهد الأساكي، ونفقت فيها أسواق العلوم، فكانت محط رحال العلماء وطلبة العلم، وكانوا يأتونها من كل مكان، من داخل البلد

(*) أستاذ الفقه وأصوله ومقاصد الشريعة بكلية البنات - الجامعة الإسلامية بالنيجر.

(١) الشيخ الأمين عوض الله. العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلكنتين الإسلاميّتين مالي وسنغاي. ص ١٣٦، ٢١١.

(٢) عبد الرحمن السعدي. تاريخ السودان. ص ٢١.

وخارجه، قال الألـوري: (ولمّا ارتكز العلم بمدينة تنبكتو رجع النـاس إليها في طلب العلم؛ إذ إنها أقرب إليهم من غيرهـا، فارتادوا ديار العلم بها حتـى نبغ فيهم عدد كبير مـن أهل العلم، وعند ذلك اكتفوا بما فـي بلادهم، وصاروا لا يطلبون العلم إلى سواها، ولا يحتاجون إلى غير مؤلفات علمائها الراسخين في العلم)(١).

يظهر ممـا تقدم مكانة تنبكتـو حيث كانت مركـزاً علمياً فريداً في المنطقـة آنذاك، ويزيد ذلك جلاء ما ذكـره صاحب الفتاش؛ أن مدارس تعلّم القرآن للصبيان الذيـن يقرؤون في تنبكتو قد بلغت مائة وخمسـين، كما اشـتهرت تنبكتو بجامعتها العريقة، والمتمثّلة في جامع سـنكوري الذي كان يضاهي جامع القرويين بفاس، وزيتونة بتونس، والأزهر بمصر، وقـد تخرج من جامعة تنبكتو علماء شهد لهم التاريخ بالصدارة في شتى فنون العلم، إلى جانب التدين، سيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.

ثانيـاً: جنّي: وكانت من أهـم المراكز العلمية في السـودان الغربي، تأسسـت في القرن الثالث الهجري، وقد أسـلم أهلها مع ملكهم المسمّى كنبر، في القرن السادس الهجري، وكان إسلام السلطان المذكـور أمام أربعة آلاف ومائتي عالم، ولما أسـلم خرّب دار السـلطنة وحولها إلى مسجد لله تعالى، وهو الجامع في جنّي، وأنشـأ داراً أخرى لسـكناه بجوار المسجد(٢).

اشـتهر أمر مدينة جنّي بعد ذلك، ونفقت فيها أسواق العلوم والمعارف، ورحل الناس إليها من كل مكان، ويؤكّد ذلك قول السـعدي: (وقد ساق الله – تعالى – لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين؛ من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى)(٣).

(١) آدم الألوري، بواسطة الأمين عوض الله، ص ٢١٢.
(٢) السعدي، ص ١١ - ١٢، بتصرف.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦.

وقد اعتنى الأسـاكي بمدينـة جنّي اعتناءً كبيراً، فبنوا فيها المسـاجد ومسـاكن لطلاب العلم، وأغدقوا عليهم وعلى أساتذتهم الأرزاق، فاحتلّت مدينـة جنّي بذلك الدرجـة الثانية في الميـدان الثقافي بعد مدينـة تنبكتو، وكان السـلطان أسـكيا محمد الكبير أوّل من عيّن القضـاة في جنّـي للفصل بـين الناس وفق الشريعة الإسلاميّة(٤).

ثالثاً: غـاوو: وقد كانت عاصمة مملكة سنغاي، تذكـر بعض الروايات التاريخية أنها تأسسـت في أواسـط القرن الثاني من الهجرة، وانتشر الإسلام فيها عند تمام القرن السادس الهجري(٥).

وكانت غاوو أقلّ مـن تنبكتو وجنّي من حيث انتشار العلم، ربما كان سبب ذلك كونها العاصمة السياسـية، ولا يعني ذلك أنهـا كانت أقلّ كثافة سـكانية منهمـا، حيـث تذكر بعـض الروايات التاريخيـة أنها كانت مدينة كبيرة، بلغ عدد الدور فيها ٧٦٢٦ داراً، بخـلاف البيوت المتواضعة من الأكواخ الكثيرة، في عهد أسـكيا محمد الكبير، وعـلاوة على ذلـك أنّ التجار كانـوا يقصدونها من المغرب وغيرها، ويـدل على ذلك قول أحمد بابا معبّراً عن شـوقه إلى تنبكتو في أثناء وجوده بالمغرب:

أيا قاصداً كاغو(٦) فعرج نحو بلدتي
وزمز لهم باسـمي وبلـغ أحبّتي
سـلاماً عطيراً من غريب وشائق
إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي(٧)

وقد شملت حركة تأسيس المدارس والمعاهد والمساجد في عهد أسـكيا محمد الكبير مدينة غاوو، وأوقف الحـكام والأثرياء الأوقاف الكثيرة

(٤) محمد ألفا جالو، الحياة العلميّة في دولة سنغاي خلال الفترة ٨٤٢ - ١٠٠٠ هـ، رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ص ١٠٩ - ١١٠.
(٥) الأمين عوض الله، ص ١٣٨ - ١٤٠.
(٦) اسم من أسماء غاوو.
(٧) الأمين عوض الله، ص ١٣٩ - ١٤٠.

على المساجد والأئمة والمؤذنين والخطباء والمدرسين في مدينة غاوو [1].

وكانت المجالس العلمية تعقد ويحضرها الحكام، ومنهم أسكيا داود، وهناك مجلس الجمعة في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة، علاوة على المكتبات العامة التي كانت تتوفر في مدينة غاوو للبحث والمطالعة، ومن أشهر هذه المكتبات: مكتبة أسكيا داود، ومكتبة أسكيا محمد الأوّل، ومكتبة أسكيا محمد بان بن أسكيا داود [2].

ويظهر مما تقدم دور مدينة غاوو الثقافي والعلمي، وهو ما جعلها مركزاً علمياً ثقافياً إلى جانب كونها العاصمة السياسية، وإن كان النشاط العلمي والثقافي في تنبكتو وجنّي أكثر منها.

▪ المبحث الأول: دور العلماء [3] في نشر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وجنّي وغاوو:

لا يمكن الجزم بتحديد تاريخ دخول الإسلام في السودان الغربي، غير أنّه من المعلوم تاريخياً أنّ الإسلام قد وصل إلى المنطقة في وقت مبكّر؛ بسبب تردّد التجار إليها من المشرق والمغرب، وقد تغلغل الإسلام في أعماق بلاد السودان الغربي في عهد الأساكي انطلاقاً من المراكز المذكورة سابقاً، وذلك بواسطة جهود سلاطين سنغاي (الأساكي) الذين قاموا بدور بارز في تشجيع العلماء، بتأسيس المساجد والمدارس ومساكن الطلاب، والنهوض بأعبائها مادياً ومعنوياً، حيث أغدقوا على العلماء وطلبة العلم وأنفقوا عليهم بسخاء، وأعفوهم من كل وظائف السلطنة.

ولا شك أنّ هذا الاعتناء من الأساكي قد هيّأ للعلماء ومهّد لهم الطريق لنشر الثقافة الإسلامية العربية، فنصبوا أنفسهم لنشر العلم في المساجد والمدارس وفي بيوتهم، وتفرغوا لتدريس العلوم بشتى فنونها، وخاصة الدينية منها واللغوية، حيث ظلت العلوم الشرعية واللغوية تحتل مركز الصدارة في السودان الغربي، فظهرت مؤلفات وحواش وشروح في مختلف المجالات، وخاصة في الجانب الفقهي، فقد اعتنوا اعتناءً كبيراً بأمهات كتب المذهب المالكي، فأجادوا وأفادوا.

وقد استطاع العلماء في عهد الأساكي أن يضعوا للحكام قواعد يسيّرون على وفقها شؤون البلاد [4]، مراعين في ذلك مقاصد الشريعة وأعراف الناس في البلاد، وبفضل صبر العلماء ومثابرتهم على التدريس ليل نهار؛ استطاعوا أن ينهضوا بمستوى الوعي الديني في أوساط شعب سنغاي إلى أعلى مستواه، مما جعلهم يحظون - وبخاصة علماء الشريعة - باحترام منقطع النظير، ربما وصل إلى حد التقديس المحرم [5]، يؤكّد هذا قول الحسن الوزان: (إن تنبكتو وقت زيارته لها كانت مليئة بالعلماء والفقهاء والأئمة، وأنّ هؤلاء يتمتّعون برواتب سخية، ويعاملون باحترام وتعظيم) [6].

مراتب العلماء:

- الأشراف: وهم الذين ينتسبون إلى أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء أغلبهم، إن لم يكن كلهم، كانوا من الوافدين على البلاد وخاصة تنبكتو، وقد نالوا احتراماً منقطع النظير من قبل الأساكي والأهالي [7].

- أهل بيوت العلم من سكان البلاد: ويأتي بعد الأشراف أهل بيوت العلم من سكان البلاد الذين توارثوا العلم، ومن هؤلاء: أسرة آقيت، فقد تعدد فيهم العلماء والقضاة، وتوارثوا رئاسة العلماء مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، ومنهم كان الأساكي

(١) محمد ألفا جالو، ص ١١٨.
(٢) المرجع السابق، ص ١١٨.
(٣) للمزيد انظر: السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٧ - ٤٨.

(٤) محمد ألفا جالو، الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة ٨٤٢ - ١٠٠٠، ص ٤٩.
(٥) المرجع السابق، ص ٥٠.
(٦) الحسن الوزان، وصف أفريقيا، ٢ / ١٦٧.
(٧) محمد ألفا جالو، ص ٥١ ، بتصرف.

يختارون القضـــاة في تنبكتو وجنّي وغاوو [1]، وهذه الأســـرة هي أسرة أحمد بابا التنبكتي الذي طبقت شهرته الآفاق.

- أســـرة انــدغ محمد: وإلى جانب الأســـرة السابقة كانت هناك أسرة اندغ محمد، وهي أيضاً أســـرة علم وصلاح، توارثوا مراكز مهمة في البلاد، كالقضاء، والإمامة، والتدريس [2].

وهؤلاء العلماء المشـــار إلى أسرهم ومناصبهم؛ منهـــم من كان بارعـــاً في علوم الشـــريعة أصولها وفروعها، ومنهم من كان بارعـــاً في اللغة وفقهها، والنحو، وأســـرار البيان، ومنهـــم من جمع بين هذه العلوم كلها إلى جانب مشاركته في الطب، والهندسة، والحساب، والتنجيم وغيرها.

وفيمـــا يلي نعرض جملة من علماء هذه المراكز الثلاثـــة (تنبكتـــو، وجنّي، وغـــاوو) الوافدين منهم والمحليين:

أولاً: الوافدون، ومنهم:

١ - الإمـــام محمـــد بن عبد الكـــريم المغيلي التواتي التلمســـاني: ولد بتوات في حي كان يسكنه اليهـــود، طلب العلم في صباه، ثـــم انتقل إلى فاس للتعمق في الدراســـة، وهناك جمع كثيراً من العلم، وقد اشـــتهر أمره كداعية إسلامي متمسكاً بالسنّة، بعيداً عن البدعة.

وفي أثناء وجوده بفاس جرى بينه وبين علماء فاس خلاف، ثم رحل إلى تونس، ومنها إلى بلاد السودان الغربي، فوصل إلى كانو، وغاوو [3]، وكان ذهابه إلى غاوو باستدعاء من الحاج أسكيا محمد الكبير، وأقام في المدينـــة مدة يمارس التدريس والتأليف، وألف لأســـكيا محمد كتاباً أجاب فيه عن عدد من المســـائل، وكتاباً آخر أجاب فيه عما يجب على الحاكم نحو المحكومين [4].

٢ - صالـــح بـــن محمد أندى عمـــر المعروف بالشـــيخ العمـــري: كان من أهل العلـــم والفضل، وكان كلامه مسموعاً لدى السلاطين، له شرح على مختصر خليل [5].

٣ - أبو القاســـم التواتي: وصـــل إلى تنبكتو مع جماعة من علماء وشـــرفاء تافليلالت، وســـكن بالقرب من المســـجد الأعظم، وكان يستقبل الطلبة في داره، وكان أســـكيا محمـــد يصلي وراءه ويطلب دعـــاءه، وحينما توفي في تنبكتـــو عام ١٥١٦م كان يوجد بتنبكتو خمسون عالماً من توات [6].

٤ - الإمام سيدي يحيى المغربي: إمام مسجد سيدي يحيى الذي كان في قلب مدينة تنبكتو، توفي هذا العالم سنة ١٤٦٣م [7].

ثانياً: العلماء المحليون، ومنهم:

١ - محمـــود بن عمر بـــن محمد آقيت: ولد في تنبكتو عـــام ١٤٦٣م، وكان يدرس أمهات الكتب المالكيـــة، وألفية ابن مالك، ســـافر إلى الحج عام ١٥٠٩م، وفي طريقه مـــر بمصر فحصل بينه وبين علماء مصر مناقشـــات علمية، مـــن هؤلاء العلماء: إبراهيم المقدسي، والقلقشندي، ولما عاد إلى تنبكتو لازم التدريس وانتفع به بشر كثير [8].

٢ - عبـــد اللـــه بـــن عمر بن محمـــد آقيت: كان أســـتاذاً في ولاتة وتنبكتـــو، متضلعاً في العلوم الشرعية، قوي الحافظة، وكان مهيب الجانب لورعه وزهده [9].

٣ - الحاج أحمد بن عمر بن محمد آقيت: كان أكبـــر الإخوة الذين عُرفوا بالعلم في تنبكتو، وصفه أحمـــد بابا بأنه كان فقيهاً نحويـــاً لغوياً عروضياً،

(١) المرجع السابق، ص٥٢.
(٢) نفسه، ص ٥٣.
(٣) حمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص ٥١٤.
(٤) محمد ألفا جالو، مرجع سابق، ص ١١٩ - ١٢٠.
(٥) محمد الغربي، ص ٥١٥.
(٦) المرجع السابق، ص ٥١٥ - ٥١٦.
(٧) محمد ألفا جالو، ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٨) محمد الغربي، ص ٥١٦.
(٩) المرجع السابق، ص ٥١٦.

محصـــلاً بارعاً حافظاً، معتنياً بتحصيل العلم، وأنه نســخ كتبه. كتب عــدة دواوين، وجمــع كثيراً من الفوائد والتعاليق، عمل في القضاء بولاتة وتنبكتو، ثم ارتحل للمشرق برســم الدراسة والحج، وجلس للتدريس بعد عودته، حتى مات سنة ١٥٣٦م[١].

٤ - محمــد بن محمود بن عمر آقيت: وصفه أحمد بابا بأنه كان ثاقب الذهن صافي الفهم، ومن دهاة العلماء، تولى القضاء بعد أبيه، وكان أســتاذاً للمنطــق والبيان، وله تآليــف على رجز المغيلي في المنطق، توفي سنة ١٥٦٥م[٢](٢٨).

٥ - أحمــد بن أحمد بن عمــر آقيت: أخذ العلــم عن أبيه وجده، وقد برع في الحديث والفلك والهندســة، وكان جمّاعاً للكتب، أتى بقدر منها من مصر عام ١٥٤٩م، وترك ســبعة تآليف، بعضها في الأدب والحديث، كان يدرّس في المســجد في غاوو، توفي سنة ١٥٨٣م في غاوو[٣].

٦ - العاقب بــن محمود بن عمر آقيت: أخذ العلم عن أبيه وعمه، ورحــل إلى مصر حيث تلقى العلم في مجلس الإمام أبي الحسن البكري، ثم رجع إلى تنبكتو فتصدر للقضــاء والتدريس حتى توفي سنة ١٦٠٢م[٤].

٧ - محمــد بن محمود بــن أبي بكر الونكري التنبكتي، المعروف ببغيوغــو: وقد عُدّ هذا العالم حجة الإسلام في السودان الغربي، قال عنه أحمد بابــا: (كان طويل الروح في التعليــم، لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد ... درس على أبيه العلوم العربية والفقه، ثم ارتحل إلى المشرق وحضر مجالس العلم بمصــر حيث تتلمذ على أشــهر العلماء، من أمثال الناصــر اللقانــي، والتاجوري، والبكــري. وبعد الحــج رجع إلى تنبكتو بعلم كثير، ثم تابع دراســته وتخصصه في الفقه والحديث والبيان والمنطق)[٥]، وقال عنه أيضاً: (حتى صار في آخرة الحال شــيخ وقته في الفنون، لا نظير له، لازمته أكثر من عشــر سنين)[٦].

٨ - أحمد بابا التنبكتي المتوفى سنة ١٠٣٦هـ: صاحب التصانيف الكثيرة، قد اشــتهر شهرة تغني عن تعريفه، قال عن نفســه: (ألفت عدة كتب تزيد على الأربعين تأليفاً)[٧].

٩ - أبو عبد الله اندغ محمد بن الفقيه المختار النحوي: كان إماماً في ســنكوري، درّس فيه الشفا للقاضي عياض[٨].

١٠ - أبو العباس الفقيه أحمد بن اندغ محمد بن محمود: كان بارعاً في اللغة[٩].

فهؤلاء العلمــاء كانوا من أبــرز العلماء الذين ســاهموا في نشر الثقافة الإســلامية العربية في تنبكتــو وغاوو وجنّــي، وفي ذكرهــم كفاية لبيان الغرض.

▪ المبحث الثاني: دور المساجد والمدارس والمجالس العلمية السلطانية في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي:

أولاً: المساجد:

من المعلوم في تاريخ المســاجد في الإســلام، أنّ المســجد كان يؤدي دوره الدينــي والاجتماعي والتربوي، والسياســي، فكانت القرارات الحاسمة تُتخذ في المســجد، إلى جانب الكراســي العلمية في جميع صنوف المعرفة، واســتمر المسجد يؤدي هذه الأدوار حتّى ابتلي العالم الإسلامي بالاستعمار الغربي الذي حاول بكل قواه أن يحجّر دور المسجد، ويقصر نطاق مهامه على الصلوات المفروضة.

وقد كانت المســاجد في عهد الأســاكي تقوم

(١) نفسه، ص ٥١٧.
(٢) نفسه، ص ٥١٧.
(٣) نفسه، ص ٥١٨.
(٤) نفسه، ص ٥١٨.
(٥) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص ٦٠٢.
(٦) المرجع السابق، ص ٦٠٢.
(٧) محمد الغربي، ٥٣٩ - ٥٤٠.
(٨) محمد ألفا جالو، ص ٢٥٠.
(٩) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

بدورها الديني والتربـوي والتعليمي، وذلك بفضل عناية هؤلاء الأسـاكي بها، حيـث خصّصوا رواتب للعلماء الذين يدرّسـون فيهـا، وللأئمة والخطباء والوعاظ.

ومن أهم المسـاجد التي اشتهرت بنشر الثقافة الإسلامية العربية، ما يأتي:

١ - مسـجد جنغراي بير: وهو أول مسـجد أُسـس في تنبكتو، وذلك في عهد سـلطان مالي المسمى (مانسا موسى) ١٣٢٥م[١].

٢ - مسـجد سنكوري: ويقع هذا المسجد في حي سـنكوري في تنبكتو، وكان من أشهر المساجد في المدينة، بل في السودان الغربي لكثرة طلبة العلم فيه[٢].

٣ - مسـجد سـيدي يحيى: وهذا المسـجد أسسـه حاكـم تنبكتو محمد نض، فـي زمن حكم الطوارق، ولما استولى سـوني علي بير على المدينة جعل سيدي يحيى المغربي المتوفى سنة ١٤٦٣م إماماً ومدرّساً فيه[٣].

٤ - مسـجد التواتيين فـي تنبكتو: وكان من أشـهر أئمته الفقيه محمود بن محمـد الزاغاني النحوي، المتوفى سنة ١٦٠٢م[٤].

٥ - مسـجد جنّي: ويرجـع تاريخ بنائه إلى نهاية القرن السـادس الهجري، بناه سـلطان جنّي كوي كنبير بعد إسلامه، وقد ظل هذا المسجد يؤدي دوره في نشر العلم والثقافة الإسلامية إلى سقوط دولة سنغاي[٥].

٦ - المسجد الكبير في غاوو: وهو من المساجد التي أقامها مانسا موسى بعد عودته من الحج سنة ١٣٢٥م[٦].

(١) نفسه، ص ١٥٢.
(٢) نفسه، ص ١٥٣.
(٣) نفسه، ص ١٥٣.
(٤) نفسه، ص ١٥٤.
(٥) نفسه، ص ١٥٥.
(٦) نفسه، ص ١٥٥.

ثانياً: المدارس[٧]:

لقد انتشـرت المدارس في مملكة سـنغاي في عهد الأسـاكي بشكل كبير، بسـبب اعتناء الملوك بنشر الثقافة الإسلامية العربية، حيث كان الأساكي أنفسـهم علماء يزاحمون طلاب العلم في المجالس العلمية.

ويمكن أن نشير هنا إلى أهم المدارس وأشهرها في عهد الأساكي:

١ - معهد سنكوري أو جامعة سنكوري إن صح التعبير: وكان هذا المعهد يقع في حي سـنكوري إلى جانب المسـجد الكبير، حيث ألحقت حجرات المعهد الدراسـية بالمسـجد، ويرجع تاريخ هذا المعهد إلى القرن الثامن الهجري، في عهد مانسا موسى.

٢ - مدرسة محمود عمر قاضي تنبكتو المتوفى سنة ٩٥٥هـ: وقد تخرج فيها معظم مشاهير علماء تنبكتو.

٣ - مدرسـة كلسـخ: أي منبع العلم: وكانت تـدرس فيها العلوم الدينية، وتقع في وسـط مدينة تنبكتو.

٤ - مدرسة الفقيه أبي بكر أحمد آقيت التنبكتي المتوفى سـنة ٩٩١هـ: اشتهرت هذه المدرسة بالنحو واللغة، ومن أشـهر من تخرج فيهـا: العالم الكبير أحمد بابا التنبكتي.

٥ - مدرسـة القاضي مودبـو محمد الكابري: تقع في حي سـنكوري بتنبكتـو، وكان طلاب العلم يأتونها من جميع أنحاء بلاد سنغاي وخارجها، تخرج فيها علماء مجتهـدون عُـرفوا بالعلم والصلاح، مثل الفقيه عمر بن محمد آقيت، والسيد يحيى التادلي الشاعر المشهور في زمانه.

٦ - مدرسـة الفغ محمود بـن الحاج المتوكل: وهي مدرسـة متخصصة فـي السـيرة والتاريخ الإسـلامي، وصاحبها كانت له دراية بتاريخ سنغاي ومل، تخرج فيها صفوة مـن العلماء، ولعل صاحب

(٧) نفسه، ص ١٦٨ - ١٧٥.

الفتاش منهم.

٧ - مدرسة أبي زيد عبد الرحمن بن محمود: اشتهرت بكثرة طلابها، وكان صاحبها جامعاً بين التدريس والوعظ.

٨ - معهد جنّي: وهو معهد جامع لكل فنون العلم والمعرفة، تدرس فيه العلوم الدينية، والرياضية، والطبية، والاجتماعية، وكان يدرس فيه نحو ألف طالب.

وإلى جانب المدارس كانت هنالك كتاتيب منتشرة بشكل كبير، لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، كما وجدت في تنبكتو مدارس مهنية لتعليم الخياطة وصناعة النسيج.

ثالثاً: المجالس العلمية في قصور السلاطين [1]:

لقد كان أسكيا محمد الكبير هو أول من بدأ بعقد المجالس العلمية في قصره من بين سلاطين سنغاي، وكان يستدعي العلماء من خارج البلاد لإحياء هذه المجالس العلمية، إلى جانب استعانته بعلماء بلاد سنغاي المحليين، وقد أثبت التاريخ مراسلته مع الإمام المغيلي الذي استدعاه في النهاية إلى غاوو، فأكرم وفادته، وأحله محل شوراه، ونهج طريقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد واصل سنّته أبناؤه الذين حكموا البلاد من بعده، وأبرزهم أسكيا داود الذي اشتهر بحبه للعلم والعلماء، وإلى جانب هذه المجالس العلمية السلطانية كان بعض الأغنياء يتخذون في بيوتهم مجالس علمية خاصة، ويدعون إليها كبار العلماء والقضاة والمربين، كما أنّ العلماء أنفسهم كانت لهم مجالس خاصة في بيوتهم، مما يدل على أنّهم كانوا قد حبسوا أنفسهم على نشر العلم والثقافة الإسلامية العربية.

(١) نفسه، ص ١٨٨.

▪ المبحث الثالث: مناهج التعليم والمواد الدراسية [2]:

لقد تأثرت مناهج التعليم في السودان الغربي عموماً بمنهج المغرب، حيث كان العرف الجاري في التعليم أن يبدأ التلميذ بالكتّاب فيتعلم القراءة فقط في أوّل أمره، فإذا وصل إلى مرحلة يستطيع فيها أن يميز بين الحروف ويستطيع أن يقرأ باجتهاده الشخصي؛ بدأ المؤدّب يعلّمه الكتابة، وهذه هي مرحلة التعليم الأولي، وفيها يحفظ التلميذ القرآن كله أو نصفه، حسب قدرته وذكائه، وقد يتعلم فيها بعض المبادئ الفقهية.

ثم تأتي المرحلة العالية، وتكون الدراسة في هذه المرحلة في الجوامع والمدارس، ففي الجوامع يجلس الطلبة على شكل نصف دائرة حول الشيخ، ويكون من بينهم من يقرأ ويتولى الأستاذ الشرح، وكان هذا الطالب القارئ يُسمى (المسرد)، ويمكن لغير طلبة المجلس أن يحضروا لسماع الدرس بلا مانع، بينما تكون المدارس خاصة للمتعلمين.

وفي هذه المرحلة يتعلم الطالب النحو، واللغة، والفقه، وسائر علوم الشريعة، ثم يتدرّج في تعلم العلوم الأخرى حسب ميله، ومعالم نهاية هذه المرحلة غير محددة ولا واضحة، وإنما ذلك راجع إلى الأستاذ، فهو الذي يجيز من يجيز من طلبته، إما إجازة عامة أو خاصة.

وهذا الشيخ أحمد بابا يشير لنا هنا إلى طريقة الأخذ في هذه المرحلة في حديثه عن ملازمته لشيخه محمد بغيوغو، فيقول: (لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل، وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق وتحرير ختمتها عليه، أما خليل فمراراً عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي وقراءة غيري، وحضرت عليه التوضيح كذلك، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم،

(٢) محمد الغربي، ص ٥٤٩ - ٥٥٤.

وحضرته كثيراً في المنتقى والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات، وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها، وحضرتهما عليه مرة أخرى.

وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين بمختصر السعد، وصغرى السنوسي ومع شرح زروق عليه، ونظم ابن مقرعة، والهاشمية في التنجيم مع شرحها ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح الشريف، والدماميني، وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليه.

وسمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري، ودولاً من مدخل ابن الحاج بقراءة غيري، ودروساً من الرسالة والألفية وغيرهما، وسمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً... وباحثته كثيراً في المشكلات، وراجعته طويلاً في المهمات... وهو شيخي وأستاذي، ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه... وأجازني جميع ما يجوز له ومنه، وكتب لي بخطه في ذلك)(١).

فهذا الكلام المنقول يوضح لنا منهج الأخذ والتعلم في المرحلة العالية، كما استفدنا منه نوع الكتب التي كانت تدرّس في مدارس مملكة سنغاي ومساجدها آنذاك، ونوع العلوم والفنون التي كانت سائدة وقتئذ، فقد كفانا عرض الكتب والفنون التي كانت مقررة والحمد لله.

وأما الإجازة التي تحدّث عنها أحمد بابا هنا، فهي مثل شهادة التخرج اليوم، وهي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب وتحصيله التام لفن من الفنون، قال محمد الغربي: (ولقد وجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، وهي:

١ - شهادة السماع: وتعني أنّ الطالب تتبع أقوال العالم وحفظها.

٢ - وشهادة العرض: أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره للنصوص ومعرفته بشروحها.

٣ - ثم الإجازة الكاملة: وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون، ولكن هذه الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، فلكي تعطى لا بدّ أن يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المُجاز أن يُلقي درساً بمحضر أستاذه؛ لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها)(٢).

■ المبحث الرابع: الكتب والمكتبات وأثرها في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي:

لقد كان من أهم العوامل التي ساعدت على نشاط الحركة العلمية في مملكة سنغاي توفر الكتب والمكتبات العامة والخاصة، حيث اعتنى أهل سنغاي باقتناء الكتب واستنساخها، واستوى في ذلك العلماء والملوك والتجار(٣)، فقد كان التجار يجلبونها من جميع الأماكن، قال الحسن ابن الوزان: (إن تجارة الكتب في هذه البلاد كانت تدر أرباحاً طائلة، بحيث فاقت الأرباح الناتجة عن العمل في أي تجارة أخرى)(٤).

وقد كانت معظم هذه الكتب ترد بلاد السودان الغربي من بلاد البربر، وكان حكام سنغاي يشجعون على تحصيل العلوم الإسلامية العربية، كما كانوا يشجعون على اتخاذ المكتبات واقتناء الكتب، ولا سيما أسكيا داود الذي يبدو أنّه كان أول من اهتم بإنشاء المكتبات العامة من بين الأساكي، فكانت له مكتبة ضخمة رفيعة الشأن، وكان من عادته شراء نسخ من المخطوطات والكتب التي تصل إلى بلاد السودان الغربي، واتخذ مجموعة كبيرة من الكتّاب

(١) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص ٦٠٢، والسعدي، تاريخ السودان، ص ٤٦.

(٢) محمد الغربي، ص ٥٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٥٦.

(٤) الحسن بن الوزان، وصف أفريقيا، ٢ / ١٦٧.

والنساخ، مهمتهم نسـخ هذه المخطوطات والكتب، ثم توزيعهـا على المعلمين وكبـار العلماء والطلاب والمكتبات العامة، وكان يقوم هو نفسه بتوزيعها [١].

وفـي اهتمام أسـكيا داود بالكتـب والمكتبات قال محمود كعت: (كان أسـكيا داود سلطاناً مهيباً فصيحاً خليقاً للرئاسـة، كريماً جواداً... وهو أول من اتخذ خزائن المال، حتّى خزائن الكتب، وله نسّاخ ينسخون له كتباً، وربما يهادي به العلماء) [٢].

ومن الأسـاكي الذين اهتموا بالكتب والمكتبات أسـكيا محمد بان، كانت له مكتبـة خاصة، وكان له نسّاخ يرأسـهم العالم أحمد بن دنبسل الفلاتي المتوفى سنة ٩٩٥هـ [٣].

وقد كان من أهم المكتبات في السـودان الغربي تلك التي امتلكتها آل آقيت، وعلى رأسـهم أحمد بن عمر بن محمد آقيت، ثم ابنه أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت، قال أحمد بابا : (أنا أقل عشيرتي كتباً، وقد نصب لي ست عشرة مائة مجلد) [٤].

ومن أهم المكتبات أيضـاً خزانة العالم الفقيه محمـد بن محمـود بن أبي بكر الونكـري، وكانت خزانته عظيمة، تحتوي على كل غريب ونفيس، قال أحمـد بابا: (إنه بذل نفائس الكتب الغريبة الغزيرة لأهل العلم) [٥].

ومن مميـزات هذه الخزانـة أنّ صاحبها كان يعير الكتب لطلبة العلم من غير قيد ولا شرط، وإن لـم يكن يعرف الطالب، إيثاراً لوجه الله تعالى، قال أحمد بابا: (جئت يوماً أطلب منه كتب نحو، ففتش في داره، فأعطاني كلّ ما ظفر به منها) [٦].

هكذا كان حال العلماء في عهد الأسـاكي، من حيث الجمـع بين العلم والـورع والتقوى والإيثار، فانتعش بذلك العلم، وازدادت الحركة العلمية، كما تصدى علماء تنبكتو لشـرح أمهات الكتب والتعليق عليهـا، كما قامـوا بالتأليف فـي جميع المجالات العلمية: في التاريخ، والرحلات، والتراجم، والنحو، واللغة، والفقه، وغيرها، وكانت لأسرة آقيت من ذلك نصيب الأسد.

هـذا، ونذيل حديثنا عن اهتمام أهل سـنغاي بالكتب والمكتبـات بعرض بعض المؤلفـات لعلماء السودان الغربي:

١ - تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائـع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنسـاب العبيد من الأحرار، للمؤرخ الكبير محمود كعت، ولد في عام ١٥٤٨م في منطقة غورما غرب غاوو وراء النهر، وقد عاصر هذا المؤرخ أسكيا الحاج محمد الكبير في بدء شـبابه، ثم انتقل إلى تنبكتو لطلب العلم، توفي سنة ١٥٩٣م [٧].

٢ - تاريخ السـودان، للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللـه بن عمران بن عامر السـعدي، ولد عام ١٥٩٦م، تلقـى العلم في تنبكتو، واهتم بالتاريخ منذ شـبابه، قال فـي كتابه هذا: (ولـما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسـه، وذهاب ديناره وفلوسـه، وإنه كبيـر الفوائد، كثيـر الفرائد؛ لما فيـه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسـلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، فاستعنت بالله – سبحانه – في كتب ما رويت عن ذكر ملوك أهل سغي) [٨].

٣ - تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، لمؤلف مجهـول، كان يعيش في تنبكتـو، وبها تعلم العلم، كلّفه الباشـا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي، وقد فرغ من تأليفه في ١٩ يوليو عام ١٧٥١م [٩].

٤ - نيـل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، وهو هامش على كتاب الديباج المذهب في

(١) محمد ألفا جالو، ص ٧٢ - ٧٥.
(٢) محمود كعت، تاريخ الفتاش، ص ٩٤.
(٣) محمد ألفا جالو، ص ٧٥.
(٤) المرجع السابق، ص ٧٦.
(٥) أحمد بابا، نيل الابتهاج، ص ٦٠٠.
(٦) المصدر السابق، ص ٦٠٠.

(٧) محمد الغربي، ص ٥٣١.
(٨) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢.
(٩) محمد الغربي، ص ٥٣٦.

معرفة أعيان علماء المذهب، لبرهان الدين إبراهيم بن فرحون، وقد جاء هذا الهامش أكبر من الكتاب نفسه، بدأ أحمد بابا تأليفه في تنبكتو، وأتمه في مراكش، ثم وضع له تكملة سماها (تكملة الديباج) في ثمانية عشر جزءاً، اشتملت على تراجم أئمة المذهب المالكي، ثم جعل لتلك التكملة ذيلاً سمّاه (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج) أو (ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج)[1].

وقد فاقت مؤلفات أحمد بابا الأربعين، أضف إليها مؤلفات سائر أفراد أسرته، ومؤلفات شيخه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري المعروف ببغيوغو.

خاتمة:

توصلنا من خلال هذا العرض المتواضع لمظاهر الثقافة الإسلامية العربية في تنبكتو وغاوو وجنّي في عهد الأساكي إلى النتائج الآتية:

أولاً: أهمية تنبكتو وغاوو وجنّي، حيث كانت مراكز دينية وثقافية، انطلقت منها الثقافة الإسلامية العربية في السودان الغربي، وهو ما تشهد له دلائل تاريخية عديدة.

ثانياً: الكشف عن جهابذة من علماء سنغاي وغيرهم ممن وردوا على السودان الغربي، وساهموا مساهمة فعالة في رفع مستوى الوعي الديني والثقافي تحت عناية الأساكي، كما ساهموا في إثراء المكتبات الإسلامية بأفكارهم النيرة، وأقلامهم السيالة، فكانت بيوتهم محط رحال العلماء وطلاب العلم الذين أتوا إليهم من كل مكان.

ثالثاً: بيان الدور الرئيس الذي كانت المساجد والمدارس تؤديه في التربية والتعليم، فاشتهرت من المساجد مسجد سنكوري، ومسجد جنغراي بير في تنبكتو، ومسجد جنّي، والمسجد الكبير في غاوو، اشتهرت هذه المساجد كجامعات إسلامية عالمية، ولا سيما جامع سنكوري الذي قل من لم يدرس فيه من مشاهير علماء تنبكتو من أسرة آقيت، وأسرة اندغ محمد.

رابعاً: الكشف عن المناهج التعليمية، والمواد الدراسية، والكتب السائدة آنذاك، ابتداء من مرحلة تعليم القراءة والكتابة، إلى مرحلة البحث والنظر والمناقشة، كما تطرق البحث إلى كيفية الإجازة ودرجاتها، فوجد أنها كانت تنحصر في ثلاث درجات:

١ - شهادة السماع.
٢ - شهادة العرض.
٣ - الإجازة الكاملة.

خامساً: بيان أثر الكتب والمكتبات في نشر الثقافة الإسلامية العربية في عهد الأساكي، حيث كثرت المكتبات العامة والخاصة في كل من تنبكتو وغاوو ذجنّي، بفضل تشجيع الأساكي على ذلك، ولا سيما أسكيا داود الذي كلن مولعاً بشراء الكتب ونسخها وتوزيعها على العلماء والمكتبات، وكذلك أسكيا محمد بان الذي سار على نهج أسكيا داود في اقتناء الكتب واستنساخها، فانتعشت تجارة الكتب في هذه المراكز الثقافية، ونفقت فيها أسواقها، حيث كانت الكتب تدر الأرباح على التجار أكثر من كل بضاعة أخرى.

كما تطرق العرض إلى بعض مؤلفات السودان، كتاريخ الفتاش للمؤرخ الكبير محمود كعت، وتاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي، (وتذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان) لمؤلف مجهول من أهل تنبكتو، وبعض مؤلفات العالم الكبير أحمد بابا التنبكتي كالنيل والتكملة.

سادساً: بيان دور الأساكي في نشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي؛ وذلك أنهم كانوا علماء، فأحبوا العلم وأهله، وأعفوا العلماء من كل وظائف السلطنة، كما استعانوا بالعلماء من كل مكان لتأسيس دولتهم على العلم

(١) نفسه. ص ٥٤٠ - ٥٤١.

والإيمان، حيث كانوا يحكمون بالكتاب والسنّة، ففتح الله على أيديهم قلوب العباد قبل أبواب البلاد.

وأخيراً، فقد توصلنا إلى نتيجة جديرة بالذكر، وهي أنّ شعب سنغاي رغم تمكن الإسلام في قلوبهم، واستماتتهم في الدفاع عن القرآن ولغته، لم تستطع اللغة العربية أن تسيطر على لغتهم، فقد ظلوا متمسكين بلغتهم الأم، فتجد الواحد منهم يستطيع أن يقرأ القرآن أو غيره ويفسره بلغته المحلية حسبما تلقاه عن شيخه، ولكنّه لا يجيد التحدّث باللغة العربية، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

المصادر والمراجع:

١ - بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، لمحمد الغربي.

٢ - تاريخ السودان، للشيخ عبد الرحمن السعدي.

٣ - تاريخ الفتاش، للمؤرخ الكبير محمود كعت.

٤ - الحياة العلمية في دولة سنغاي خلال الفترة ٨٤٢ - ١٠٠٠هـ / ١٤٦٤ - ١٥٩١م - رسالة ماجستير، نوقشت في جامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣م، إعداد محمد ألفا جالو.

٥ - العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين؛ مالي وسنغاي، للشيخ الأمين محمد عوض الله.

٦ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي.